

المنهج العبادي للإمام علي (ع)



www.balagh.com

إلى منهج الإمام علي العبادي الملتَزِمُ أشار الإمام الباقر (ع) بقوله: (.. وما ورد عيه أمران فقط كلاهما ۖ رضى إلا أخذ بأشدهما على بدنه).

وقد ورد عن الإمام علي (ع) ذاته: (.. وإنما هي نفسي أروٌ ضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر).

وفي حديث ضرار بن ضمرة لمعاوية بن أبي سفيان حول شخصية الإمام (ع) تجسيد لهذه الحقيقة، فمما جاء في حديثه (.. كان وَا صواماً بالنهار قواماً بالليل ..).

– توكل صادق ويقين راسخ:

وحيث أن التوكل على الله تعالى زاد المتقين، واليقين بما شعار المؤمنين الصادقين يملأ قلوبهم بالثقة والاطمئنان والعزيمة والارتفاع على جميع عقبات الحياة.

فقد كان أمير المؤمنين (ع) قائداً لأهل اليقين بعد رسول الله (ص) ويعسوباً للمتوكلين. وهذه سيرته العطرة تحفنا بالعديد من الشواهد في هذا المضمار.

فعن الإمام الصادق (ع) قال: كان لعلي (ع) غلام اسمه قنبر، وكان يحبه علية حباً شديداً، فإذا خرج علي (ع) خرج على أثره بالسيف فرأاه ذات ليلة، فقال له: يا قنبر ما لك؟

قال: جئت لأمشي خلفك، فإن الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين فخفت عليك.

قال: ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض؟

قال: لا بل من أهل الأرض.

قال (ع): إن أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً إلا بإذن الله عزوجل فارجع. فرجع.

وعن أبي عبد الله (ع) قال: (إن أمير المؤمنين (ع) جلس إلى حائط يقضى بين الناس.

فقال بعضهم: لا تقدع تحت هذا الحائط فإنه معور.

فقال أمير المؤمنين: حرس امرأ أجله.

فلما قام أمير المؤمنين (ع) سقط الحائط.

وكان أمير المؤمنين (ع) مما يفعل هذا وأشباهه، وهذا اليقين).

وعن سعيد بن قيس الحمداني قال: (نظرت يوماً في الحرب إلى رجل عليه ثوبان، فحركت فرسه فإذا هو أمير المؤمنين (ع)).

فقلت: يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضوع؟

فقال: نعم يا سعيد بن قيس، إنه ليس من عبد إلا وله من الله عزوجل حافظة وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر، فإذا نزل القضاء خلياً بينه وبين كل شيء.

هذا هو علي (ع) في قوة يقينه بالله تعالى وشدة توكله عليه سبحانه.

- مصاديق من زهد الإمام (ع):

ولقد كان الزهد معلماً بارزاً من معالم شخصية الإمام علي (ع)، وسمة مميزة زينته الله تعالى به فعن عمارة بن ياسر (رض) قال: قال رسول الله (ص) لعلي: (إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها، هي زينة الأبرار عند الله: الزهد في الدنيا، يجعلك لا ترزاً - تعيب - من الدنيا ولا ترزاً الدنيا منك شيئاً، ووهبك حب المساكين، يجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضون بك إماماً).

وقد كان من شواهد تلك الصفة التي حباه الله تعالى بها:

أن زهد الإمام (ع) عن كل لذات الحياة وزينتها وتوجه بكل وجوده نحو الآخرة، وعاش عيشة المساكين وأهل المترية من رعيته.

لقد زهد الإمام (ع) بالدنيا وزخرفها زهداً تماماً وصادقاً: زهد في المال والسلطان، وكل ما يطمع به الطامعون.

فلقد عاش في بيت متواضع لا يختلف عما يسكنه الفقراء من الأمة، وكان يأكل الشعير، تطحنه امرأته أو يطحنه بنفسه، قبل خلافته، وبعدها حيث كانت تجبي الأموال إلى خزانة الدولة التي كان يضطلع بقيادتها من شرق الأرض وغربها. وكان يلبس أبساط أنواع الثياب، فكان ثمن قميصه ثلاثة دراهم.

ولقد بقي ملتزماً بخطه في الزهد طوال حياته، فقد رفض أن يسكن القصر الذي كان معداً له في الكوفة حرماً منه على التأسي بالمساكين.

وهذه بعض المصادر كما ترويها سيرته العطرة:

فعن الإمام الصادق (ع) يقول: (كان أمير المؤمنين أشيه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم).

وعن الباقر (ع) قال: (ولقد ولـي خمس سنين وما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة، ولا أقطع قطيعاً ولا أورث بيضاً ولا حمراً).

وعن عمر بن عبد العزيز قال: (ما علمنا أن أحداً كان في هذه الأمة بعد رسول الله (ص) أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنيه على لبنيه ولا قصبة على قصبة).

وَعَنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: (دَخَلْتُ عَلَى مَعَاوِيَةَ، فَقَدِمَ إِلَيْيَّ مِنَ الْحَلْوِ وَالْحَامِضِ، مَا كَثُرَ تَعْجِبِي مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: قَدَمُوا ذَاكَ الْلَّوْنَ، فَقَدَمُوا لَوْنًاٌ مَا أَدْرِي مَا هُوَ ... !

فقلت: ما هذا؟

قال: مصارين البط محسنة بالملح ودهن الفستق قد ذر عليه السكر!! .
قال الأحنف: فيكبت.

فقال معاویة: ما يبكيك؟

قال معاوية: وكيف؟ فقلت: در ابن أبي طالب، لقد جاد من نفسه بما لم تسمع به أنت ولا غيرك!.

قلت: دخلت عليه ليلة عند إفطاره.

فقال لي: قم فتعش مع الحسن والحسين، ثم قام إلى الصلاة، فلما فرغ دعا بجراب مختوم بخاتمه، فأخرج منه شعيراً مطحوناً، ثم ختمه.

فقلت: يا أمير المؤمنين لم أعهدك بخيلاً، فكيف ختمت على هذا الشعير.

فالله! لم أختمه بخلاً، ولكن خفت أن يبسّه الحسن والحسين بسمن أو إهاله!

فقلت: أحرام هو؟

يقدرون عليه ليراهم الفقير، فيرضي عن الله تعالى بما هو فيه، ويراهم الغني فيزداد شكرًاً وتواضعاً). قال: لا، ولكن على أئمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل واللباس، ولا يتميزون عليهم بشيء لا

وعن سويد بن غفلة قال: دخلت على علي (ع) بالكوفة، وبين يديه رغيف من شعير، وقدح من لبن، والرغيف يا بس. فشق علي[ؑ] ذلك.

فقلت لجارية لها فضة: ألا ترحمين هذا الشيخ، وتنخلين له هذا الشعير.

فقالت: ... إنه عهد إلينا ألا ندخل له طعاماً = قط .. !

فالتفت الإمام إلى^٣ وقال: ما تقول لها يا ابن غفلة، فأخبرته ...

وقلت: يا أمير المؤمنين ارافق بنفسك.

فقال لي: ويحك يا سويد؟ ما شبع رسول الله (ص) وأهله من خبز بُرٍّ ثلاثة تباعاً حتى لقي الله، ولا نخل

له طعام قط ...)) .

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: رؤي على علي (ع) إزار مرفوع، فعوتب في ذلك.
فقال: يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن.

وعن الغزالى يقول: (كان علي بن أبي طالب يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له إلا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره).

هذا هو علي في شدة زرده ورغبته عن الدنيا وزخارفها، وفي عظيم اقتدائءه برسول الله (ص) وفي مواساته لأهل المترفة من أمتة (ص)، فهل حدثك التاريخ عن زعيم كعلى (ع)؟ تجلى إليه الأموال من الشرق والغرب، وعاصمه الكوفة - تقع في أخصب أرض الله وأكثرها غنى يومذاك، بيد أنه يعيش أبسط عيش مواسياً لأقل الناس حطاً في العيش في هذه الحياة ... يأكل خبز الشعير دون أن يخرج نحاليه .. ويكتفي بقميص واحد لا يجد غيره عند الغسل ... ويُحرم على نفسه الأكل من بيت المال .. ويرفع مدرعته حتى يستحي من راقعها مجسداً بذلك أرفع شعار للزاهدين: (.. فواه ما كنـت من دنياكم تـبرأ ، ولا ادـخـرت من غـناـئـمـها وـفـراـ ، ولا أـعـدـت لـبـالـي ثـوبـ طـمـراـ ، ولا حـزـت من أـرـضـها شـبـراـ ، ولا أـخـذـت منـه كـقـوتـ أـتـانـ دـبـرـةـ ، ولـهـيـ فيـ عـيـنـيـ أـوـهـيـ وـأـوـهـنـ منـ عـفـصـةـ مـقـرـةـ) .

- صدقة الإمام (ع) :

ولا نريد أن نذهب بعيداً في ذكر الشواهد على تعاهد الإمام علي (ع) لأمر الصدقة، قبل أن نستقي من القرآن الكريم نماذج من صدقة الإمام (ع) عطرتها آيات الله تعالى بالثناء الجميل، ورسمت أبعاد التواب الإلهي العظيم الذي لا يعلم مداه غير الله الذي أعده تبارك وتعالى لأمير المؤمنين (ع).

ففي حادثة إطعام علي (ع) وأهل بيته (ع) للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيام وإيثارهم لهم على أنفسهم، واكتفائهم بالماء وهم في أيام صوم متالية .. تنزلت آيات الله تعالى مسجلة أعظم مآثر علي (ع) في ضمير الوجود حيث ستبقى ترددتها الآفاق والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى.

(وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبَّهِ مَسْكِينًا وَيَتَّبِعُهُمَا وَأَسْبِرُهُمْ إِنَّهُمْ نُطْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّمَا زَخَافُهُمْ رَبَرَنَّا يَوْمًا عَبُوسًا قَمَطَرَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ دَلِكَ الْيَوْمَ وَلَقَاهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرَيرًا) (الإنسان / 8 -

12).

وليس المهم في الأمر حجم ما قدمه الإمام (ع) لأولئك المحتاجين، فإن الكثير من الناس يبذلون أضعاف ذلك.

ولكن شتان بين من ينفق لوجه الله تعالى دون شائبة، وبين من ينفق من أجل غرض دنيوي أو حادث أو ذكر يشاع بين الناس. كما أنه شتان بين من ينفق كل ما لديه وهو أحوج ما يكون إليه وبين من ينفق بعض ما لديه ...

وهكذا يختلف التقويم عند الله تعالى بين ذا وذاك!

وفي حادثة تصدق علي (ع) بخاتمه على مسكين استبدت به الحاجة، فطاف على الناس فلم يجد مَنْ يسد خلته، فأشار إليه علي (ع) وهو يصلی في مسجد رسول الله (ص) ووحبه خاتماً في يده.

فنزل القرآن الكريم على رسول الله (ص) مبيناً فضل ما أقدم عليه الإمام (ع) واستعمل القرآن المناسبة لإرشاد الأمة إلى أن علياً (ع) مرجعها الفكري والعملي بعد رسول الله (ص): (إِنَّمَا وَلِيَ كُمُّ
اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِلَلَهِ وَيُقْرِبُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الرِّزْكَاهَ
وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّهُ حَرَبَ
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (المائدة/ 55 – 56).

وهذه الآية الكريمة من أكثر النصوص دلالة على أن العمل الصالح في منظور الله تبارك وتعالى إنما هو بدوافعه لا بحجم منافعه.

فليس المهم أن تعطي كثيراً، ولكن الأساس في الأمر نية العطاء فالتقييم الرباني إنما يدور مدار النية حيث تدور، فكلما اقتربت من الله تعالى وابتغيت رضوانه كان ثوابك أعظم وأجل ..

ومن المناسب أن نطرح إضافة إلى ذلك مصاديق من سيرة الإمام (ع) في هذا المضمار مما روتة كتب التاريخ:

فعن أبي عبد الله الصادق (ع) قال: (كان أمير المؤمنين يضرب بالمر - المسحة - ويستخرج الأرضين، وأنه اعتق ألف مملوك من كده يده).

وعن أيوب بن عطية الحذاء قال: سمعت أبي عبد الله (ع) يقول: (قسم النبي الله الفيء، فأصاب علياً أرضاً، فاحتفر فيها عيناً، فخرج ماء ينبع كهيئه عنق البعير، فسمها ينبع، فجاء البشير يبشر. فقال (ع): بشر الوارث هي صدقة بتلاه في حجيج بيت الله، وعا بري سبيل الله لا تباع، ولا توهب ولا تورث فمن باعها أو وهبها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً).
وعن أحمد بن حنبل في الفضائل: (أنه كانت غلة علي أربعة ألف دينار فجعلها صدقة).

والحديث عن حرص الإمام (ع) على تعاهد أمر الصدقة في سبيل الله تعالى يذكرنا بالنفس السخية التي يمتاز بها أمير المؤمنين (ع).

فكثرة أدائه للصدقة وشدة بذله لها وإن كان يعكس صورة صادقة عن جود الإمام (ع) وسخائه، إلا أن سيرته العطرة تكشف إلى جانب ذلك وجهاً آخر من شخصية الإمام العظيم.

فقد كان (ع) أسوى من الغيث على الأمة التي عايشها لا نقصد بهذا جوده بنفسه من أجل حفظ الرسالة ومسيرة الإسلام التاريخية، ذاك الذي يتجلى عبر البطولات التي أبداها (ع) في حروب الإسلام كلها، فحدثنا وهذا .. يتطلب بمفرده سفراً كاماً، وإنما نقصد ما يتعلق بالسخاء بالمال.

فلقد اعترف بجود الإمام (ع) وسخائه اشد الناس عداوة له: معاوية بن أبي سفيان الذي ما برح ينسج الأكاذيب والافتراءات لتشويه سمعة الإمام (ع) غير أنه لم يستطع أن ينكر فضيلة الجود عند علي (ع) فقد

قال له يوماً مخفي بن أبي مخفي الصبي: جئتك من عند أبخل الناس، فقال ابن أبي سفيان: ويحك كيف تقول إنه أبخل الناس، لو ملك بيتك من تبر - ذهب - وبيتك من تبن لأنفداً تبره قبل تبنيه. ويقول الشعبي يصف الإمام (ع): كان أنسخ الناس، كان على الخلق الذي يحبه الله: السخاء والجود، ما قال لا لسائل قط.

- الجهاد في سبيل الله:

وحياة علي أمير المؤمنين (ع) كلها جهاد في سبيل الله تعالى في مرحلة الدعوة، وبعد قيام الدولة الإسلامية، وإذا كان قد وقى الرسول (ص) بنفسه وفداه بوجده وتعرض لأخطر تآمر جاهلي على حياة رسول الله (ص) عند مبيته على فراشه في ليلة الهجرة المباركة، من أجل أن يصرف عنه شر عادة الجاهلية. فإن علياً قد تحولت حياته بعد الهجرة إلى المدينة المنورة إلى حلقات متسلسلة من ذلك النوع الجهادي العظيم، فقد كان حامل لواء الزحف الإسلامي في كل غزوات أخيه رسول الله (ص) وطليعة المجاهدين في ساحات الجهاد، وكلما حزبت الأمور وحمي الوطيس انتدبه رسول الله (ص) لكشف زحف العدو عن حياض المسلمين ... وكانت كل مواقفه الجهادية من النوع المصيري الذي يحمي الرسالة ويكشف عنها خطر التصفية المحققة والإجهاز الخطير على وجودها، تجلى ذلك في بدر الكبرى حين صفى الكثير من رؤوس الوثنيين وملأ بها ساحة المعركة.

وفي (أحد) حين أطبق جيش الضلال على معسكر الإيمان وكانت الغلبة للعدو، نهض الإمام (ع) بدور عرقلة تقدمهم حيث بادر إلى تصفية حملة الألوية من بني عبدالدار واحداً تلو الآخر.

وفي غزوة الأحزاب حين بلغت القلوب الحناجر وبلغ الضيق والهلع بال المسلمين كل مبلغ نهض الإمام (ع) بالأمر وأرعب العدو وأعاد للمسلمين الثقة بالنفس حين قتل أبرز قواهم عمرو بن عبد ود العامري. حيث كان قتل العامري حداً فاصلاً بين المعسكرين إذ تلاه انهزام جيش الأحزاب مع ما امتاز به من ضخامة في العدد والعدة ..

وعلى (ع) هو الذي اقتحم حصون خيبر ودخل عليهم عنوة، ففتح الله على يديه حصون اليهود الرهيبة. وكم أسطر لك من بطولات علي (ع) وصفحات جهاده المشرقة التي تشع بالمجده والعزه والإخلاص؟. فدونك تاريخ الإسلام في عصره الأول: في عهد رسول الله (ص) فأمعن النظر في صفحاته كي تحدثك بفضل علي (ع) على الإسلام رسالة، وأمة، وتاريخاً.

على أن الجانب المعنوي في جهاد علي (ع) ليس مجسداً في حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها فحسب وإنما في صدق النية وحجم الإخلاص الذي امتلاه قلب علي (ع) وهو يخوض تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يرد.

ومن أجل ذلك كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض.

فها هو القرآن الكريم يثني على علي (ع) يوم فدى نفسه رسول الله (ص): (وَمَنِ الْذَّا سَرَّ مَنْ).

بَشْرِي نَفْسَهُ أَبْتَغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ (البقرة/ 207).

ويكشف بعمق عن صدق نية الإمام (ع).

وها هو كتاب الله العزيز يقطع بأن جهاد علي (ع) وبطولاته وتصحياته كانت أجل الله وإعلاء كلمته في دنيا الناس، ولا يمكن أن تقرن بأي لون من ألوان العمل الآخر. فبسبب الثمن الباهظ الذي يتطلبه الجهاد، وبسبب الدافع الإيماني المخلص الذي لا تشوبه شائبة راحت آيات الله تعالى تحدد الموقع الرفيع الذي يحتله علي (ع) في دنيا المتدينين: (أَجَعَ لَتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَيَسْتَوْنَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الطَّالِمِينَ) (التوبة/ 19).

فعلى أثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبة والعباس بن عبدالمطلب، قال في طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأن المفتاح بيدي.

فقال العباس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها!

وفيما كانا يتفاخران من الإمام (ع) فافتخر عليهما بقوله: (لقد صليت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد). فنزل قول الله تعالى في ذلك كاشفاً عن المستوى العظيم الذي يتبوأه علي (ع) من ناحية عمله الإسلامي: صخامة وإخلاصاً، بعدها وجوهراً.